السكن والتساكن بين الخيار الثقافي والحتميات البيئية في مدينة ورقلة (الجزائر) دراسة أنثروبولوجية

قصي عطية (طالب دكتوراه)
أ. د خليفة عبد القادر
جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)

الملخص :

إن التحول الذي تشهده مدينة ورقلة ، كان ضرورة حتمية لمواكبة التطور الراهن الذي يشهده العالم الحديث ، نتيجة الاندماج و التواصل بين أفراد المجموعة الاجتماعية ككل ، هذا التحول في كل من البنى الاجتماعية و الثقافية ينعكس بدوره على المجالات العمرانية ، التي تحدد مدى تأثيرها على نمط السكن وتنوعه وتطوره ، كل ذلك يطرح العديد من الاشكاليات التي توضع على محك الدراسة من الجانب الأنثروبولوجي ، لمعرفة دور الخيار الثقافي ، و الحتميات البيئية ، في اختيار نمط السكن الذي يتماشى و الهوية العمرانية للمدينة الحديثة ، والحفاظ على التقاليد ، التي تتصهر ضمن الخصوصية الصحراوية في المجال العمراني الذي يميزها .

كلمات مفتاحية : البنى الاجتماعية ، نمط السكن ، التحول ، الثقافة ، البيئة ، المجال العمراني .

Abstract :

The noticed transformation in the desert of the city of Ouargla is an inevitablenecessity to keep up with the current development of the modern world as a result of the integration and communication amongmembers of the social group as a whole. This transformation in both social and cultural structures isreflected in the urbanfieldwhichdetermineits impact on the pattern, diversity and development of housing. All thisraisesmany of the problemsthat are investigatedfrom the anthropologicalside in order to know the role of the cultural and environmentalchoices in choosing the style of housingthatis in line with the urbanidentity of the modern city, and preserves the traditions which are fusedwithin the desertproperty in the urban area thatcharacterizesit.

Key words : Social structures, Housing style , the shift ,Cultural option, Environmentalchoice , Urban area .

مقدمة :

لكل بحث أنثروبولوجي ميداني هدفاً خفياً غاية في الأهمية بالنسبة للمجتمع وهيئاته والمهتمين به تحديداً ، وهو ترسيخ ثقافة البحث العلمي في الواقع الاجتماعي ، هذا ما جعل من مدن الصحراء الجزائرية ميدانا خصبا يستحق المغامرة العلمية ، وكذا البحث الذي يستدعي إلى استحداث أداة تحول للباحث الانثروبولوجي للدخول في مضمار الميدان وتقصي جملة الحقائق و الظواهر و التحولات التي تطرأ على هذه المجتمعات في كل من الاسرة و التركيبة السكانية و الانظمة الاجتماعية وتأثر كل منهم بالآخر ، وفق مراحل عديدة حيث يجد الباحث أن الصحراء اليوم قد تغيرت عن صحراء الأمس ، فمن تلك الحياة البسيطة التي تميزت بطابعها التاريخي و الثقافي و المعيشي إلى المدينة الحديثة التي يشوبها التعقيد في كل من العادات و التقاليد ، بنية الأسرة ، السكن ، الفضاء الحضري ، كلها تمر بمراحل التغيير إلى غاية اليوم .

كل هذا جعل من البحث الانثروبولوجي يتميز في دراسة هذه الظواهر و التحولات ، حيث يسعى إلى البحث في الغموض الذي يلف الظاهرة قيد الدراسة من كافة جوانبها ، باعتبار أن الصحراء الجزائرية عامة ومدينة ورقلة خاصة ميدان خصب يستحق البحث و التعمق أكثر فأكثر ، وكذا تفجير الاشكال الانثروبولوجي بالنبش في ما هو خفي أو ربما قدسي .

لا شك أن الاهتمام بالأسرة يعني الاهتمام بالمجتمع ، حيث تعتبر الأسرة وحدة من وحدات المجتمع باعتبارها نسقاً اجتماعياً ذا أجزاء مكونة يربط بينها التفاعل ، و الاعتماد المتبادل ، وكذا الترابط المنطقي بين الأدوار الاجتماعية الأساسية التي تتكون منها الأسرة ، ولكي تستمر الأسرة في النمو يجب تحقيق المتطلبات البيولوجية و الثقافية وفق التراث الجماعي الذي يحافظ على البناء الوظيفي داخل المجتمع ويساهم كذلك في تطور العلاقات القائمة على مبدأ التعاون و الترابط ، نجد أن السكن يخضع بدوره إلى هذه المتطلبات مما أدى إلى تشكل الحياة الحضرية الحديثة وكذا نشأة وتطور المدن التاريخية في الصحراء ، هذا التوسع العمراني خلق ما يعرف بالاندماج الاجتماعي بين المجموعات الاجتماعية من خلال التحول الاجتماعي الذي تمارسه المدينة الحديثة في الصحراء الجزائرية .

حيث قمنا في هذه الدراسة التي تهدف في مجملها إلى تتبع مراحل تطور السكن و الخيارات المتحكمة في هذا التحول الذي يقود بدوره إلى تشكل الحياة الحضارية الحديثة ، وذلك من خلال تقسيم العمل إلى عدة عناصر ، تعالج نمط السكن بين الخيار البيئي و الخيار الثقافي في مجتمع مدينة ورقلة ، وكذلك دراسة التغيرات الاجتماعية ، و الاقتصادية ، و الثقافية ، باعتبار ما تملكه هذه المدينة المؤهلة ، حسب موقعها الاقتصادي الذي أدى إلى التطور السريع في كافة أشكالها ،وصولا إلى هذا النسيج العمراني الذي يعكس مدى سرعة هذه التحولات نتيجة لعدة عوامل داخلية كانت أم خارجية .

1/ التغيرات الاجتماعية و الثقافية في صحراء الجزائر : شهدت الصحراء الجزائرية الكثير من التحولات الاجتماعية و الثقافية عبر الزمن ، هذه التحولات أدت إلى تغيير في بنية كل من الأسرة و المجتمع ، بما في ذلك الثقافة التي تتحكم في طرق التفاعل و الاندماج داخل أفراد المجتمع ، وبذلك تساهم في ترابط وتماسك المجتمع ككل ، ففي قلب المجتمع تتعايش تعددية من الأشكال ، و العدة الثقافية لأعضائه تختلف بحسب الوضعية الاجتماعية (العمر ، الجنس ، التربية ، الثروة ، المهنة ، القناعات السياسية ، الانتماء الديني .. إلخ)[1] ، حيث عرفت مدن الجنوب الجزائري قديماً بأنها مجموعة من القبائل و العشائر المنغلقة على نفسها نتيجة العادات و التقاليد و الأعراف التي تسيرها ، هذا الانعزال لم يستطع الوقوف ضد تيارات التطور و العولمة الذي شمل كل مدن الصحراء الجزائرية ، جعل منها تنفتح على غيرها

[1] مارك أوجيه ، جان بول كولاين، **الأنثروبولوجيا** ، ترجمة : د.جورج كتورة ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، لبنان ، 2008 ، ص 21.

من المدن الأخرى مما أدى إلى حدوث التحول الاجتماعي الذي يختلف عما كانت عليه سابقاً ، فمسايرة المدينة الصحراوية لوتيرة التحضر جعلها تنتقل طواعية من ماض اجتماعي منغلق ، إلى حاضر يتفاعل مع مفهوم العصرنة التي أكسبت المجتمع نمطية مغايرة في الحياة[2] ، استطاعت هذه التحولات السريعة أن تضع بصمتها في كل من الطابع المعماري و البنية الاجتماعية التي تتمحور على جملة من العادات و التقاليد و المعتقدات .

هذا التطور أدى إلى الانتقال من الحياة البسيطة إلى الحياة المعقدة وفق معايير عالمية تضمن هذا التحول انطلاقا من الطابع المعماري وصولا إلى التحول الذي يشمل كل من السلوك الاجتماعي و ثقافة التعايش في المجتمع الحضري الجديد ، إن ردود الأفعال التي تقوم بها المجتمعات جراء التغيرات الاجتماعية ، و الاقتصادية ، و السياسية المتواصلة التي تصيب المجتمعات بشكل عام تختلف آثارها بحسب قدرة هذه المجتمعات على التعامل مع تلك التغيرات بصورة عملية وبقدرة فائقة على استيعابها بشكل حضاري[3] ، ولعل متتبع أحداث التطور في الصحراء الجزائرية وما آلت إليه في الوقت الراهن سوف يجد أن مدينة ورقلة حقلاً من حقول هذا التغير الاجتماعي حيث تعتبر مدينة ورقلة من المدن التاريخية في الجنوب الجزائري لما تحتويه هذه المنطقة من تراث يضرب بعمق في جذور التاريخ القديم و الحديث ، ورقلة هي تلك المدينة التي تروي لزائرها قصصاً وحكايات من الرواسب الثقافية التي لازالت ضمن الفلكلور الشعبي ، فمن عناصر الثقافة المادية التي تشتمل على مجموعة من القصور، و الأبراج ، و الزوايا الدينية ، وغيرها من المعالم التاريخية التي ضلت شاهدة على حياة الإنسان في حقبة من حقب التاريخ ، إلى جانب التراث المادي ، التراث اللامادي الذي يتمثل في رمزية المعتقدات الشعبية وكذا العادات و التقاليد و الشعائر ، وغيرها من الطقوس الأخرى التي تزخر بها المدينة من جهة و المجتمع البدوي العشائري من جهة أخرى .

هذا الانفتاح على الثقافات الأخرى نتيجة الاختلاط ، و الاحتكاك ، و التطور الذي شهدته مدن الجنوب ، جعل من مدينة ورقلة تشهد الكثير من التحولات الاجتماعية ، و الثقافية ، بعدما كانت منعزلة تمارس نشاطاتها وفق دائرة من العادات و التقاليد و الأعراف التي تمثل محوراً هاماً في العلاقات الاجتماعية ككل ، هذا التطور أدى إلى ظهور بوادر التغيير في هذا المجتمع ، واكتساب مجموعة من السلوكيات و العادات الجديدة نتيجة العوامل الداخلية ، و العوامل الخارجية ، ولعل العوامل الاقتصادية التي تمحورت في استغلال النفط هذا الأخير الذي أعطى ديناميكية جديدة في المجتمع ، أدى إلى استقطاب اليد العاملة من كافة ربوع الوطن ، وخلق سياسة التعمير ، و التشييد ، وفتح المجال أمام الحياة الحديثة من جهة ، و العمل على كسر سياسة العزلة التي تميز قبائل الصحراء من جهة أخرى ، أدى إلى ظهور نشاطات تجارية متنوعة وعصرية وبداية مرحلة التحضر و الانتقال من الحياة البدوية إلى الحياة الحضرية الحديثة التي تشتمل على المرافق العمومة المتنوعة و النشاطات المختلفة ، وظهور التنوع الثقافي نتيجة الاندماج و الاتصال بين الأفراد من مناطق مختلفة ، إلا أن هذا التطور المعلوماتي الذي يفرض بدوره ميكانزمات جديدة داخل المجتمع ، أدى إلى خلق ما يعرف بالصراع بين الثقافات ، بين ما هو متجذر منذ القدم ، وما هو جديد يتصف بالغرابة من جهة ، ويرفع راية التطور و الازدهار ومواكبة الحياة الحديثة من جهة أخرى .

---

[2] عبد الرؤوف مشري ، آمنة بودن ، **مظاهر التغيير الاجتماعي للأسرة الجزائرية بالمدينة الصحراوية في ظل راهن التحضر** ، مجلة العلوم الانسانية و الاجتماعية ، جامعة ورقلة ، عدد خاص بالملتقى الدولي تحول المدينة الصحراوية – تقاطع مقاربات حول التحول الاجتماعي و الممارسات الحضرية 03-04 مارس 2015، ص 101.

[3] عبد الله بن ناصر السدحان:**الآثار الاجتماعية للتوسع العمراني المدينة الخليجية أنموذجاً** ، سلسلة كتاب الأمة ، العدد 132 ، قطر ، 2010 ، ص27.

2/ خصائص المجتمع التقليدي في الصحراء: مما لا شك فيه أن لكل مجتمع ما خصائص تميزه عن غيره من المجتمعات الأخرى ، تمس كل من الثقافة و العادات و التقاليد وطرق العيش وأيضاً الموروث الثقافي الذي يتغلغل داخل بنية هذا المجتمع ككل ، والذي يؤثر بدوره على العلاقات الاجتماعية ، خصوصا تلك التفاعلات التي ينتهجها أفراد هذا المجتمع التقليدي في ما بينهم ، تجعل من الحياة تخضع إلى التجانس في تركيبتهم الثقافية و الاجتماعية ، كما يعتبر المجتمع التقليدي الذي يعيش في الصحراء نقطة تحول جد هامة للباحث الأنثروبولوجي الذي يتتبع الظاهرة وأشكال حدوثها و الآليات المتحكمة في ذلك التحول ، حيث قامت علاقات تاريخية طويلة بين مجتمع فلاحي الواحات ، وقبائل البدو في الصحراء ، على أساس تكاملي يظهر في تقاسم العمل و المقايضة و المبادلات و الحماية[4] ، إن المجتمع التقليدي في الصحراء له نظامه الخاص بأنماط الحياة السائدة فيها ، من حيث الدور و المكانة التي يشغلها كل فرد في المنظومة ككل ، هذا التناسق يخلق ما يعرف بالتماسك الاجتماعي في المجتمع التقليدي و الذي يظهر أثره في كل من الحياة الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية .

1.2/ الخصائص الثقافية :

* **العادات و التقاليد :** تعتبر المجتمعات التقليدية التي تعيش في الصحراء مجتمعات متماسكة و متجانسة ، لها اهتمام كبير بالعادات و التقاليد منذ القدم ، كما أنها تدخل ضمن نشاطاتهم اليومية وتمثل المحور الأساسي الذي يمثل التاريخ و الموروث الثقافي الذي ينتقل عبر أجيال و أجيال ، هذا المنطق هو الذي يؤسس الحياة الاجتماعية ككل ، كما يسعى إلى المحافظة على الموروث المادي و الغير مادي في أذهان أفراد هذا المجتمع .
* **سيادة القيم :** إن القيم أحد أهم الوسائل التي تحقق الضبط الاجتماعي داخل المجتمع ، بحيث تفرض على الأفراد مجموعة من السلوكيات و القيم و الأخلاق التي تمارس وفق قوانين منظمة داخل المجتمع التقليدي في الصحراء انطلاقا من الأسرة كبينة أساسية في المجتمع ومن ثم المجتمع بأكمله ، عن طريق التنشئة الاجتماعية التي تحث الأفراد على الالتزام بمجموعة قيم معينة تتماشى وطبيعة المجتمع .
* **العرف الإجتماعي :** في المجتمعات التقليدية نلامس عدة مفاهيم تربط العلاقة بين الأفراد وفق معطيات متفق عليها مسبقاً وفي الغالب تكون ضمن المورث الثقافي المتوارث عبر الاجيال ، حيث نجد نوع من السلطة الاجتماعية المتمثلة في سلطة زعيم القلبية أو الأشخاص الاكبر سناُ و الأكثر حكمة و خبرة في هذا المجال ، رغم اختلاف الادوار بين أفراد المجتمع التقليدي إلا أنهم يخضعون لهذه السلطة التي تحدد مصير بعض الأفراد مثل الصلح بين المتخاصمين ، و تحديد معالم المصير المشترك وفق كل المجالات الاجتماعية و الثقافية و السياسية و الاقتصادية التي تضمن الضبط الاجتماعي داخل المنظومة ككل ، حيث تعتبر من القوانين الداخلية للمجتمعات التقليدية في الصحراء.

2.2/ الخصائص الإجتماعية : لكل مجتمع ما خصائص تدخل ضمن تركيبته من جهة و تميزه عن غيره من جهة أخرى ، فالمجتمع التقليدي في الصحراء عامة ومدينة ورقلة خاصة هي مجموعة من الخصائص التي تساهم بدور كبير في تماسك وتجانس المجتمع إلى حد بعيد ، و الواقع أنه يمكن القول إن هذا الاهتمام بالحدود الرمزية هو الذي يحدد النظري الطموح و الذي تمثل في محاولتها وصف كل المجتمعات الإنسانية ، وكل الأشياء المحيطة بالكون ، من خلال مصطلحات تتعلق بطبيعة الارتباطات المختلفة بين خطوط التحديد الداخلية و الخارجية ، وهو ما تطلق عليه اسم الشبكة

[4] عبد القادر خليفة : **من القصر الصحراوي إلى المدينة الحديثة** ، مجلة العلوم الانسانية و الاجتماعية ، جامعة ورقلة ، العدد الأول ، ديسمبر 2010 ، ص 131.

أو الجماعة[5] ، كما ترمي بدورها إلى الحفاظ على كل من العلاقات الاجتماعية السائدة مثل القرابة و علاقة الجيرة و والهوية و الشعور بالانتماء و التجذر داخل هذا المجتمع و التي نذكر منها ما يلي :

* **التماسك الإجتماعي :** إن التماسك الاجتماعي هو الوحدة الاجتماعية التي تربط أفراد المجتمع بعضهم ببعض وفق مبادئ خاصة رغم انقسام هذا المجتمع إلى وحدات متناثرة وفق رقعة جغرافية محددة تمثل ما يعرف بالقبيلة أو الأعراش ، هذا التباعد الجغرافي لا يؤثر في ترابط المجتمع ككل .
* **علاقة الجيرة :** تعتبر علاقة الجيرة في المجتمعات التقليدية في الصحراء أحد أهم الأشياء التي يرتكز عليها المجتمع فهي تمثل المقدس بالنسبة لهم ، وتحمل كل من الاحترام والتقدير و التكافل و منبع الأمان الذي يربط هذه العلاقة ، وأغلب علاقات الجيرة تدخل بشكل كبير في القرابة ، قد يكون الجار أخ أو ابن عم أو صهر ....الخ ، وأحياناً من نفس القبيلة ، حيث يعنى اختيار الجار بالنسبة للمجتمعات التقليدية أشد العناية وهذا متواتر عبر أجيال وفق الموروث الثقافي اللامادي حيث نجد الكثير من الحكم التي تدل على ذلك مثل : "خير الجار قبل الدار" .
* **القرابة :** كذلك تمثل القرابة درجة اجتماعية تحظى بأهمية كبيرة وكذا الاحترام و التقدير حيث تربط بين أفراد المجتمع رابطة الدم و الرحم ، هذه الاخيرة تفرض وجود قواعد خاصة تسمح بتوطيد العلاقات الاجتماعية أكثر فأكثر خصوصا عند المجتمعات التقليدية ، وتدخل ضمن المقدس لما تمثله من مكانة اجتماعية ترقى إلى الزواج لحفظ النسل وضمان استمراره .
* **الإنتماء :** إن الانتماء هو التواجد في مكان معين مع مجموعة أشخاص تربط بينهم مصالح مشتركة في الرقعة الجغرافية الواحدة انطلاقاً من السكن و الأرض التي تكون نسق من العلاقات الاجتماعية وفق ثقافة مشتركة بين أفراد هذا المجتمع ، حيث تكفل هذه العلاقات بالشعور المشترك و المصير الواحد ، يمكن أن نلاحظ أن الإحساس القوي بوحدة القبيلة عند البدو المتمدنين بقي موجودا رغم عشريات من التمدن و التثبيت ، هذه الهيكلة الاجتماعية لاتزال فاعلة عند المجموعات الاجتماعية[6] .

3/ نمط السكن وعلاقته بالخيار الثقافي والواقع البيئي : يعتبر السكن من بين الضروريات التي يجب أخذها بعين الاعتبار، لأنه يمثل المأوى الذي يجمع الأفراد ويضمن لهم الراحة والأمن و الاستقرار ، ويوفر للأسرة نوع من الدفيء والسكينة والخصوصية داخل أرجائه ، فهو يمثل لهم الهوية المكانية و رمز من رموز الثقافة التي تكون غالباً مصدر إلهام للأسرة في بناء السكن ونوعيته ، بما يتناسب مع البيئة التي يعيش فيها الأفراد وكذا الخيار الثقافي الذي يمثل بدوره محوراً هاماً في اختيار نوعية السكن داخل المجموعات الاجتماعية في المكان و الزمان .

1.3/ أنماط السكن في مدينة ورقلة : تحتوي مدينة ورقلة على الكثير من أنماط السكن ، منها ما هو قديم ، ومنها ما هو حديث ، فهي مدينة تكتسي بحلة ثقافية متنوعة بحيث تنعكس على نمط السكن وكذا نوعيته وطريقة بنائه ، خصوصاً بعد التحولات الاجتماعية التي شهدتها مدن الجنوب الجزائري في أواخر القران الماضي ، من بين أنماط السكن التي تزخر بها المدينة نمط السكن التقليدي ، و نمط السكن العادي ، و النمط الحديث الذي يتمثل في العمارة ذات طوابق ، حيث يعتبر هذا النمط غريب بالنسبة للمدينة الصحراوية ، وهو بمثابة تأشيرة الانطلاق نحو الحياة الحضرية الحديثة ، و التي تعود دائماً إلى مسألة احتياجات الأفراد ورغباتهم ، وإلى المعنى و الغرض من تلك الرغبات ، و الحاجة إلى وجود عالم آمن يمكن أن يعيش فيه ، ثم الحاجة إلى الإحساس بالتضامن و التماسك الإنساني[7] .

---

[5] ميشيل فوكو وآخرون ، **التحليل الثقافي** ، ترجمة : فاروق احمد مصطفى وآخرون ، المركز القومي للترجمة ، ط1 ، القاهرة ، 2008 ، ص 168.

[6] د. خليفة عبد القادر: **الحضرية في مدن الصحراء الجزائرية** ، مجلة العلوم الانسانية و الاجتماعية ،جامعة ورقلة ، العدد الثامن ، جوان 2012 ، ص 05.

[7] ميشيل فوكو و آخرون ، **التحليل الثقافي**، مرجع سبق ذكره ، ص 168.

- **نمط السكن التقليدي :** يمثل هذا النمط بالذات أيقونة تحاكي الواقع الاجتماعي التاريخي للمدينة الصحراوية فهو من المعالم التاريخية المميزة للمدينة وكذا الهوية العمرانية التي تروي مجموعة من القصص القديمة قدم نشأة قصور مدينة ورقلة ، حيث استعمل في بنائها مجموعة من الأدوات الرئيسية البسيطة التي تتمثل في الماء ، و الطين ، و الطوب ، و الجبس ، و بعض من الأخشاب لكي تشكل في النهاية تحفة معمارية تتناسب مع المكان و الزمان ، وأيضاً المناخ الصحراوي الذي يتميز بدرجة حرارة عالية صيفاً مع تطاير الرمال التي تشهدها مدن الجنوب الجزائري ، كل هذه العوامل الطبيعية أخذت بعين الاعتبار من طرف أفراد المجتمع في طريقة بناء سكناتهم حيث نشاهد ما يثبت ذلك في الكثير من التجمعات السكانية التقليدية القديمة مثل القصر العتيق وبعض الأحياء السكنية في منطقة الرويسات ، حيث نجد شوارع ضيقة ومنعرجة الهدف منها تكسير قوة الرياح وإضعاف سرعتها ، و أيضاً توفير الجو الملائم الأقل حرارة في فصل الصيف.

أحد شوارع القصر العتيق — شارع في حي الرويسات "ورقلة"

أما هندسة البيت من الداخل فهي تشبه إلى حد كبير الهندسة المعمارية الإسلامية ، وذلك وفق تصميم نموذج يحتوي عدداً من الغرف أغلبها تفتح أبوابها نحو ساحة المسكن حيث يطلق عليها بلفظ "الرحبة" أي فناء المنزل هذا الأخير يعتبر مجال يتوسط المسكن والذي يؤدي وظيفية بيئية وهي تهوية المسكن كما تعتبر مكان لمختلف الأنشطة التي تقوم بها ربات البيت ، بالإضافة إلى سطح المنزل الذي يعد المكان المفضل للعيش خاصة خلال فترات ارتفاع درجات الحرارة .

كما تقوم النساء بالغسيل وغيرها من المهام الأخرى في رحبة المنزل ، كما أن أغلب السكنات تتوفر على النوافذ صغيرة تفتح للخارج وذلك لأن المسكن هو بمثابة حرمة وستر للعائلة ، لما يملكه من خصوصية اجتماعية ، و ثقافية ، و دينية ، هذا النمط التقليدي من السكن لا يزال من الشواهد الثقافية التي يحتفظ بها بعض الأفراد المجتمع لغاية اليوم .

- **نمط السكن العادي :** هذا النمط من السكن يعتبر الشائع حاليا بين سكان مدينة ورقلة، فهو يمثل النمط الحديث للسكن الذي بدأ في الانتشار خصوصاً في أواخر القرن الماضي لما يمتلكه من مميزات تتمثل في المتانة حيث يستخدم فيه العديد من المواد مثل الإسمنت و الحديد و الطوب كعناصر أساسية في بنائه ، و أيضاً هو النمط الذي يحاكي التطورات الحديثة في مجال البناء خصوصاً في المناطق الصحراوية ، كما يتيح للأسرة بناء العديد من الغرف وفق تصميم معين غالباً ما يكون فيه عناصر تشابه في الهندسة المعمارية ككل ، هذا الأخير يمتلك نفس التصميم القديم الذي يتميز به السكن التقليدي خصوصاً من ناحية الغرف و ساحة المنزل و السطح الذي يستخدم لنشر الألبسة و تربية الحيوانات الأليفة و أيضاً ملاذ للأسرة في فصل الصيف من حيث السهر و المبيت كما يتوفر على مساحة خضراء تحتوي على النخيل أو أشجار مثمرة تتناسب مع البيئة في الصحراء ، ويختلف المسكن العادي عن المسكن

التقليدي في فقدانه لبعض الأجزاء التي كانت مرتبطة بالنسق الاقتصادي القديم – الرعي والفلاحة – كغرف تخزين المحاصيل وإسطبل الحيوانات.

- **نمط السكن الحديث (العمارة) :** يعتبر هذا النمط من السكن الحديث الذي شهدته مدينة ورقلة مؤخراً لما له من مواصفات دخيلة على البيئة الصحراوية وكذلك الأسرة التي تعيش في الصحراء فهي عبارة عن مجموعة من السكنات فوق بعضها البعض بشكل تدريجي على شكل طوابق غالباً ما تتكون من ثلاث أو أربع طوابق تربط بينهم سلالم وعلى مساحة لا تتجاوز المئة متر مربع ، هذا النمط من السكن يوفر الكثير من الراحة لما يحتويه من تطور في كافة الأجهزة الخاصة بالماء و الكهرباء و التصميم الداخلي للسكن الذي يواكب العصرنة و التطور ، إضافة إلى التنوع في التصميم الخارجي للعمارة من حيث اللون و طريقة البناء ، لم يكن هذا النمط موجود في مدينة ورقلة قديماً ، غير أن التوسع العمراني في مجال السكن خصوصاً بعد التطور الذي شهدته مدن الصحراء الجزائرية لأسباب عديدة منها اكتشاف الثروات الطبيعية مثل النفط و الغاز وغيرها من الثروات الأخرى أدى إلى الكثير من التحولات الاجتماعية انطلاقاً من النسيج العمراني و النمو الديمغرافي و وفود اليد العاملة من كافة التراب الوطني جعل من الدولة الجزائرية تنتهج الطريقة الحديثة في البناء الذي يتمثل في شكل السكنات الجماعية لمعالجة أزمة السكن ، لكن هذا النمط طرح عدة إشكالات متعلقة بالمبررات التقنية لوجوده مع عدم وجود مشكلة توفر الأوعية العقارية بالجنوب الجزائري ، وتأثيره على نمط معيشة ابن البيئة الصحراوية الذي يعتبر سطح المنزل أهم جزء في المنزل وهو مالا توفره العمارة .

- **نمط السكن الفاخر- الفيلات- :** أخذ هذا النمط من السكن في الانتشار خصوصا في السنوات الأخيرة ، حيث عرفت الكثير من الأحياء في مدينة ورقلة هذا النوع الذي يتسم بتقنيات معمارية حديثة تظهر نوع من الترف و الرفاهية في العيش ، فهو عبارة عن مسكن يتكون من ثلاث طوابق أو أكثر يحيط به جدار خارجي في أغلب الأحيان ، يستخدم في بنائه العديد من المكونات منها الإسمنت والطوب و الجبس و الحديد و الخشب وحتى القرميد الذي يستخدم في تزيين الأسقف الخارجية و الذي يعتبر بدوره حديث العهد ضمن الأدوات المستخدمة في التشييد و البناء في مدن الصحراء الجزائرية ، هذا النمط من السكن يتميز بالحداثة في طريقة التشييد و البناء وكذا الأدوات التي تستخدم في بنائه ، وأكدت قصور الأغنياء على الفروق بين الطبقات و الفئات ، فنشأت المدينة ولم تكن الأبنية و النصب الضخمة مجرد شواهد على السلطة و الغنى ، بل أيضاً على متانة البناء[8] ، و يظهر هذا النمط نوع من الفوارق الاجتماعية بين سكان المجتمع حيث يستطيع الباحث في هذا المجال أن يلاحظ وجود طبقات في المجتمع تظهر من خلال نمط السكن الذي يختاره الأفراد للعيش و الاستقرار، والملاحظ أيضا غياب رموز تعكس الهوية العمرانية في هذه الفيلات.

[8] يوليوس ليبس ، **أصل الأشياء بدايات الثقافة الانسانية** ، ترجمة: كامل اسماعيل ، دار المدى للثقافة و النشر ، دمشق ، سورية ، ط2 ، 2006 ، ص 18.

فيلا بحي الرويسات مدينة ورقلة

2.3/ السكن و الحتميات البيئية

كانت ولا تزال الخيارات البيئية من بين العوامل التي تحدد نمط السكن في المدن الصحراوية و لعل الواقع المعاش في مدينة ورقلة مدينة الواحات و القصور شاهدة على تلك الحقبة من الزمن ، وذلك انطلاقاً من المناخ الذي يميز مدن الجنوب الجزائري من ارتفاع شديد في درجة الحرارة و تطاير الرمال وصعوبة العيش كل هذه العوامل أوجدت هندسة معمارية خاصة تميز مدن الواحات عن غيرها من المدن الشمالية هذه الهندسة هي ابتكار و ابداع لمواجهة البيئة الصحراوية الصعبة و التأقلم معها منذ القدم بما في ذلك طريقة البناء و التشييد فغالباً ما تستخدم عناصر البناء المحلية التي تتمثل في الطين و الماء و الخشب و الجبس و الطوب حيث تتميز السكنات القديمة بجدران سميكة لتقلل من ارتفاع درجة الحرارة داخل المنزل و أيضاً الشوارع التي تبدو ضيقة ومنكسرة وذلك لتفادي قوة الرياح الموسمية كل تلك الخبرات ليست وليدة اللحظة وإنما هي ناتج لخبرة طويلة في العيش و التأقلم مع المدينة الصحراوية ، ومن المنطقي أن لا تفكر الشعوب ببناء المساكن الدائمة إلا إذا استقرت في مكان معين ، كي تمارس الزراعة ، لذلك استطاعت الشعوب الزراعية دون غيرها بناء مساكن مستقرة بمفهومها المعاصر[9] .

إن أغلب مصير المجتمعات هو التطور و التحول وعكسه الجمود و الذوبان في كتب التاريخ ، فاستمرار هذا البناء ليس استمرارا استاتيكيا كاستمرار مبنى من المباني ، وإنما هو استمرار ديناميكي يشبه استمرار البناء العضوي للجسم الحي ، فالكائن العضوي يتجدد بناؤه باستمرار طيلة حياته ، وكذلك الحياة الاجتماعية تتجدد باستمرار البناء الاجتماعي[10] ، هذا التجدد و التطور سببه الانفتاح على الآخر الذي يعيش في مكان مخالف و بيئة مخالفة وطبيعة هذا الاتصال و التواصل ساهم في انتشار الثقافة بشكل واسع ليشمل مجالات عديدة ثقافية واجتماعية و اقتصادية ، والتي كانت في الماضي دخيلة على المجتمع الورقلي غير أن هذا الانفتاح جعل منها ضرورة حتمية لخلق جسر بين الثقافات المتنوعة للعبور نحو الأمثل بما يتناسب مع سرعة الاندماج و التغيير ، كل هذا وذاك كان سببا في توسيع رقعة المجال ليشمل بذلك النسيج العمراني الحديث من بناء وتشييد السكنات المتنوعة التي تتميز بالمتانة و الأدوات الحديثة و المتطورة في عالم الهندسة المعاصرة فأصبحت مدينة ورقلة تظهر للعيان بحلة جديدة توازن بين ملامح المدينة الصحراوية من جهة و البعث على تشكل المدينة الحضرية الحديثة من جهة أخرى .

3.3/ الخيارات الثقافية وتأثيرها على نوعية المسكن: إن الخيارات الثقافية كانت ولا تزال أحد المحاور الأساسية التي نسعى من خلالها إلى فهم هذه التحولات الاجتماعية في مدن الصحراء الجزائرية ، انطلاقاً من العادات و التقاليد و القيم و غيرها من المفاهيم السائدة في مجتمع مدينة ورقلة ، هذا التنوع الثقافي الذي كان سببه الاندماج و التواصل و التفاعل بين أفراد المجتمع مع كل من البدو المتمدنين و أيضاً الوافدين من الولايات الأخرى لأسباب عديدة منها التجارة أو

[9] يوليوس ليبس ، **أصل الأشياء بدايات الثقافة الانسانية**، المرجع السابق ، ص 14.

[10] حسين فهمي ، **قصة الانثروبولوجيا** ، عالم المعرفة ، الكويت ، 1986 ، ص131.

العمل في شركات الطاقة التي تزخر بها مدينة ورقلة عبر حقول من النفط المتواجدة في الكثير من مواقع المدينة أدى إلى ظهور أنواع جديدة من أنماط السكن وذلك استجابة للعديد من متطلبات التعمير و البناء للوصول إلى المدينة الحديثة التي تضمن توفير السكن عبر العديد من الصيغ الاجتماعية تخضع في تشييدها إلى نموذج السكن الحديث الذي يعتبر بدوره نمط دخيل على النموذج التقليدي في مدن الصحراء الجزائرية ، هذا التداخل في تركيبة السكن وتنوعه بصفة مغايرة لمعايير السكن المتفق عليها في البيئة الصحراوية لمدينة ورقلة هو بذاته تداخل في الثقافات المتنوعة بين أطراف عديدة تذوب كلها في المنظومة الاجتماعية الجديدة وبتالي تشكل الهوية الجديدة للمدينة الحديثة بما في ذلك التنوع الذي نشهده اليوم مقارنة بالماضي البعيد للمدينة ، مع عملية اندماج تاريخية وثقافية ونفسية واقتصادية تستغرق زمنا طويلاً ، مما يؤكد أهمية التاريخ في خلق الهوية الثقافية ، بصفته الرحم الذي تنمو وتترعرع فيه لتتشكل في نهاية المطاف هوية ثقافية معينة نتيجة انتمائها لأمة معينة[11] .

إن فكرة الحياة الحضرية الجديدة ليست وليدة اليوم ، إنما هي ناتج التغيير الاجتماعي و التحول الذي تشهده المدن منذ الأزل ، فالانتقال من البسيط إلى المعقد هو ضرورة حتمية يفرضها التطور، وكذلك هو الحال بالنسبة لمدينة ورقلة الآن ، هذا التسارع و الديناميكية التي تشهدها المدينة هو عبارة عن اندماج في الحياة الحضرية الحديثة ، التي تظم في طياتها العديد من الثقافات ، داخلية كانت أم خارجية ، كلها تسعى إلى بلورة الجانب الهوياتي للأفراد بما يتناسب وتطلعاتهم وميولاتهم في تصميم واختيار نمط السكن الملائم لهم ، هذا التنوع الذي تفرضه الثقافة من جهة و البيئة من جهة أخرى هو بذاته النتيجة التي يعكسها المجال العمراني في ما يخص السكن و تنوعه .

الخاتمة

إن التحولات التي تشهدها مدن الجنوب الجزائري اليوم ، ومن بينها مدينة ورقلة ، هي بذاتها نتاج لمرحلة من مراحل التطور ، وفق عوامل داخلية ، وأخرى خارجية ، هذه العوامل تفرض مجموعة من الآليات تأثر في كل من النظم و البنى الاجتماعية لأفراد المجتمع ، الذي يتفاعلون في ما بينهم من خلال نشاطاتهم ، وممارساتهم داخل هذا المجال ، هذه الديناميكية في التفاعل بين الأفراد هي صفة حتمية وضرورية نتيجة اتساع فوهة الاندماج و التواصل ، بين القرويين و البدو المتمدنين و مجموعة الوافدين كلها تساهم في خلق هوية عمرانية جديدة تظهر في مستوى النسيج العمراني الحديث والذي يظهر لنا مدى عمق هذه التحولات المجالية و الاجتماعية و الاقتصادية ، إن هذا الجانب من تطور المجتمع يعتبر كنزاً غارقاً يستدعي من الباحثين في مجال الانثروبولوجيا و علم الاجتماع ، إلى تسريع ضرورة البحث وتقصي جملة من الحقائق التي تساعد في توفير المادة العلمية قصد التنبؤ بالمستقبل الذي ينتظر مدن الواحات الجزائرية قيد التشكل ، ومعرفة العديد من الاشكاليات التي تلازم هذا التطور .

[11] شرقي رحيمة: **الهوية الثقافية الجزائرية وتحديات العولمة** ، مجلة العلوم الانسانية و الاجتماعية ، جامعة ورقلة ، العدد 11 ، جوان 2013 ، ص193.

قائمة المراجع :

1/ حسين فهمي ، **قصة الانثروبولوجيا** ، عالم المعرفة ، الكويت ، 1986 .

2/خليفة عبد القادر: **الحضرية في مدن الصحراء الجزائرية** ، مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية ،جامعة ورقلة ، العدد الثامن ، جوان 2012 .

3/ خليفة عبد القادر : **من القصر الصحراوي إلى المدينة الحديثة** ، مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية ، جامعة ورقلة ، العدد الأول ، ديسمبر 2010 .

4/ شرقي رحيمة: **الهوية الثقافية الجزائرية وتحديات العولمة** ، مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية ، جامعة ورقلة ، العدد 11 ، جوان 2013 .

5/ عبد الرؤوف مشري ، آمنة بودن ، **مظاهر التغيير الاجتماعي للأسرة الجزائرية بالمدينة الصحراوية في ظل راهن التحضر** ، مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية ، جامعة ورقلة ، عدد خاص بالملتقى الدولي تحول المدينة الصحراوية – تقاطع مقاربات حول التحول الاجتماعي و الممارسات الحضرية 03-04 مارس 2015.

6/ عبد الله بن ناصر السدحان: **الآثار الاجتماعية للتوسع العمراني المدينة الخليجية أنموذجاً** ، سلسلة كتاب الأمة ، العدد 132 ، قطر ، 2010 .

7/ ميشيل فوكو وآخرون ، **التحليل الثقافي** ، ترجمة : فاروق احمد مصطفى وآخرون ، المركز القومي للترجمة ، ط1 ، القاهرة ، 2008 .

8/ مارك أوجيه ، جان بول كولاين ، **الأنثروبولوجيا** ، ترجمة : د.جورج كتورة ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، لبنان ، 2008 .

9/ يوليوس ليبس ، **أصل الأشياء بدايات الثقافة الانسانية** ، ترجمة: كامل اسماعيل ، دار المدى للثقافة و النشر ، دمشق ، سورية ، ط2 ، 2006 .